

قضايا و آراء

الأثنين 19 من شوال 1423 هـ 23 ديسمبر 2002 السنة 126-العدد 42385

من أسرار القرآن

الإشارات الكونية في القرآن الكريم ومغزي دلالتها العلمية
(75) الذي جعل لكم الأرض فراشا والسماء بناء وأنزل من السماء ماء
فأخرج به من الثمرات رزقا لكم فلا تجعلوا لله أندادا وأنتم تعلمون
بقلم الدكتور: زغلول النجار



هذه الآية الكريمة جاءت في مقدمات سورة البقرة، وهي سورة مدنية، وآياتها 286 بعد البسملة، وعلي ذلك فهي أطول سور القرآن الكريم علي الإطلاق، وأول سورة بعد فاتحة الكتاب في ترتيب سور المصحف الشريف، وقد عظمها رسول الله صلى الله عليه وسلم تعظيما كبيرا فقال إن الشيطان ينفر من البيت الذي تقرأ فيه سورة البقرة. ويدور المحور الرئيسي لسورة البقرة حول عدد من الأحكام الشرعية، والقضايا التعبدية، والضوابط الأخلاقية والسلوكية، والركائز العقدية التي يمكن إيجاز الخطوط العريضة لها في النقاط الأساسية التالية:

(1) الإيمان بالله (تعالى) وحده (بغير شريك ولا شبه ولا منازع)، والإيمان بملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر.

(2) هذا الإيمان يقتضي التسليم بوحدة الرسالة السماوية التي أنزلها ربنا (تبارك وتعالى) علي فترة من الرسل، وختمها وأتمها، وأكملها في القرآن الكريم، الذي تعهد ربنا (سبحانه وتعالى) بحفظه فحفظ كاملا في لغة وحيه علي مدي أربعة عشر قرنا وإلي أن يرث الله (تعالى) الأرض ومن عليها، ليبقى مصدرا لهداية الناس كافة حتي يوم الدين.

(3) الإيمان بوحدة الجنس البشري دون تمييز عرقي أو عنصري أو علي أي أساس آخر لأن البشرية كلها ينتهي نسبها إلي آدم وحواء (عليهما من الله السلام).

(4) الالتزام بركائز الدين من الشهادتين، وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، وصوم رمضان، وحج البيت لمن استطاع إليه سبيلا.

(5) عدم التفرقة بين رسل الله، وترك التفضيل بينهم لله، وتتويج الإيمان بهم جميعا بالإيمان بالنبي الخاتم والرسول الخاتم سيدنا محمد بن عبد الله (صلى الله عليه وسلم)، وبالرسالة الخاتمة التي أوحيت إليه والتي حفظت في

القرآن الكريم وفي سنته الشريفة.

(6) الإيمان بضرورة تلقي الدين عن طريق القناعة العقلية والقلبية الكاملة، والتسليم بأن دين الله مبني على اليسر، ورفع الحرج، وأن من أصوله الثابتة أنه لا إكراه في الدين.... (البقرة: 256).

(7) التسليم بأن القتال مشروع في الإسلام لدفع المظالم، وللدفاع عن الأرض، والعرض، وعن النفس والمال والولد والأهل، وعن الدين ومقدساته، ولتأمين سيادة عدل الله في الأرض، ولضمان حرية الدين، وللمحافظة على كرامة الإنسان من أي جور أو طغيان، ولذلك تدعو سورة البقرة إلى الجهاد في سبيل الله دون اعتداء، وإلى تعظيم منازل الشهداء، والمجاهدين، وإلى تقدير مقامات الصابرين في البأساء والضراء، ومقامات الموفين بعهودهم إذا عاهدوا، وإلى غير ذلك من القيم ومن مكارم الأخلاق.

(8) الإيمان بحتمية الآخرة وبضرورتها، والتحذير من فجائية وقوعها، وأهوالها، والعمل على مواجهتها، وفي ذلك جاء قول الله (تعالى): واتقوا يوما ترجعون فيه إلى الله ثم توفى كل نفس ما كسبت وهم لا يظلمون. (البقرة: 281) وهو آخر ما نزل من القرآن الكريم.

(9) الدعوة إلى التأمل بعين البصيرة في آيات الله العديدة المنتشرة في الأنفس والآفاق لأنها هي كتاب الله المنظور كما أن القرآن الكريم هو كتابه المقروء.

(10) فصلت سورة البقرة أحكام الأسرة من الزواج، والطلاق، والعدة، والرضاع وغيرها.

(11) تدعو سورة البقرة في مواضع عديدة منها إلى الإنفاق في سبيل الله، وإلى الإحسان إلى الخلق بصفة عامة، وتدعو إلى إثارة الخير ونبذ الشر، كما تدعو إلى العمل الصالح المنطلق من الإيمان الصادق بالله، وإلى الاستعانة على كل جليل من الأمور بالصبر والصلاة، وإلى ترك العصبية العرقية والإقليمية الضيقة، وإلى نبذ الموروثات المغلوطة، والتقليد الأعمى، وإلى التمسك بتحكيم العقل من أجل الوصول إلى سلامة الحكم في كل أمر من أمور الحياة، كما تنعي السورة الكريمة على كل من يدعو إلى الحق وفضائل الأعمال ثم ينسي نفسه، وتحذر بشدة من التعامل بالربا وتهدد الواقعين فيه بحرب من الله ورسوله، كما تحذر من كتم الشهادة، وتؤكد المحافظة على حقوق الآخرين بكل وسيلة مشروعة، وتحذر من ديون العباد، وتضع الشروط الواجبة لحفظ حقوق الآخرين فيها.

(12) مايزت سورة البقرة في مواقع عديدة منها بين صفات كل من المتقين والمنافقين، وضربت نماذج لكل منهم، وألمحت إلى نعيم المتقين في الجنة، وإلى عذاب المنافقين من الكفار والمشركين في النار، وصورت جانباً من ذلهم وحيرتهم يوم القيامة، وحذرت المؤمنين من موالاتهم أو الركون إليهم في الدنيا، كما حذرت من متابعة الشيطان الرجيم وأعوانه وجنده.

(13) وللتأكيد على هذه المعاني والقيم ألمحت سورة البقرة لقصة أبينا

آدم (عليه السلام) وزوجه, وإلي جوانب من قصة نبي الله إبراهيم (علي نبينا وعليه السلام), وأشارت إلى اختلاف أتباع نبي الله عيسى (عليه السلام) من بعده بقول الحق (تبارك وتعالى):... ولكن اختلفوا فمنهم من آمن ومنهم من كفر... (البقرة:253).

كما تحدثت سورة البقرة عن واقعة تحويل القبلة, وعن قرار الله (تعالى) بجعل أمة الإسلام أمة وسطا ليكونوا شهداء على الناس, ويكون الرسول عليهم شهيدا. (14) وختمت سورة البقرة بدعاء إلى الله (تعالى) يهز القلوب والعقول, ويحرك الضمائر والمشاعر حيث تقول:

... ربنا لا تؤاخذنا إن نسينا أو أخطأنا, ربنا ولا تحمل علينا إصرا كما حملته على الذين من قبلنا, ربنا ولا تحملنا ما لا طاقة لنا به, واعف عنا واغفر لنا وارحمنا, أنت مولانا فانصرنا على القوم الكافرين (البقرة:286).

من الآيات الكونية في سورة البقرة



(1) التأكيد على أن القرآن الكريم كتاب لا ريب فيه والبحث العلمي يؤكد ذلك في كل كلمة وحرف وإشارة وردت فيه (الآية 2).

(2) الإشارة إلى أمراض القلوب ومنها الخوف والوسوسة والشك في زمن لم يكن معروفا لأحد شيء من تلك الأمراض (الآية 10).

(3) التمييز بين كل من الضياء والنور والنار, والمقابلة بين الظلمات والنور وهي من الحقائق العلمية التي لم يدركها الإنسان إلا مؤخرا (الآية 17).

(4) ذكر الصيب من السماء وهو المطر الغزير الذي يكثر هطوله بالليل, والمصحوب بالرعد والبرق والصواعق والعواصف وهو تجمع فريد من الظواهر الكونية التي لم تدرك إلا مؤخرا. (الآية 19).

(5) الإشارة إلى خطف البصر عن طريق الحلقة في ضوء البرق, وتقديم السمع على البصر (الآية 20).

(6) الإقرار بأن الله (تعالى) هو خالق الخلق جميعا (الآية 21).

(7) الإشارة إلى فرش الأرض وتمهيدها، وبناء السماء وإحكامها وحبكها، وإنزال الماء من السحاب، وإخراج مختلف الثمرات بواسطته، والنهي عن الشرك بالله تعالى (الآية 22).

(8) ضرب المثل بالبعوضة وما فوقها وهي من الحشرات المميزة في بناء جسدها. (الآية 26).

(9) التأكيد على أن الموت سابق للحياة ولاحق بها، وأن الله تعالى خلق ما في الأرض جميعاً ثم استوي إلى السماء فسواهن سبع سماوات وهو بكل شيء عليم (الآية 29).

(10) التأكيد على واقعة فلق البحر لنبي الله موسى (علي نبينا وعليه السلام) وفرقه إلى فرقتين، ونجاة موسى ومن معه، وهلاك فرعون وجنده وهي من حقائق التاريخ (الآية 50).

(11) التأكيد على انفجار اثنتي عشرة عيناً من عيون الماء بضربة من عصا موسى (عليه السلام) على الضفة الشرقية من خليج السويس في منطقة تعرف اليوم باسم عيون موسى (الآية 60).

(12) الإشارة بالمشرق والمغرب إلى الكون كله (الآيتان 115، 142).

(13) اتخاذ المسجد الحرام قبلة للمسلمين والعلم يؤكد مركزته بالنسبة للبابية (الآيات 144، 149، 150).

(14) الإشارة إلى خلق السماوات والأرض، واختلاف الليل والنهار، وإلى الفلك التي تجري في البحر بما ينفع الناس، وإلى إنزال الماء من السماء، وإحياء الأرض به بعد موتها، وبث الدواب من كل نوع فيها، وتصريف الرياح، والسحاب المسخر بين السماء والأرض وجعل ذلك كله آيات لقوم يعقلون (الآية 164).

(15) التأكيد على حقيقة أن الأهله هي مواقيت للناس والحج (الآية 189).

(16) التأكيد على ما في كل من الخمر والميسر من آثام تفوق أي نفع يمكن أن يجتني من ورائهما (الآية 219).

(17) التأكيد على ما في المحيض من أذى (الآية 222).

(18) التأكيد على حقيقة أن الجنة (أي الحديقة ذات الأشجار الكثيفة الملتفة على بعضها البعض) بالربوة العالية إذا أصابها الوبل (أي المطر الشديد) أتت أكلها ضعفين، وهو لا يضرها باحتمال إغراقها بالسيول لارتفاعها وسرعة انحسار الماء عنها بعد أخذ كفايتها منه، وإن لم يصبها وابل فإن الطل (أي

المطر الخفيف أو الرذاذ) يكفيها لري نباتاتها وطيب عطائها، والمقصود أن هذه الجنة تزكو وتزدهر وتثمر كثير المطر عليها أو قل، وهو تشبيه قائم على حقيقة علمية راسخة، تصف إنفاق الصالحين ابتغاء مرضاة الله وتشبهاً من أنفسهم بأنه يزكو عند الله ويطيب، زاد قدره أم قل كما تزكو الجنة بالربوة زاد المطر عليها أو قل.

وكل قضية من هذه القضايا تحتاج إلى معالجة مستقلة، ولذلك فسوف أقصر حديثي هنا على الآيتين 22,21 من سورة البقرة واللتين نتحدثان عن خمس قضايا محددة هي:

(1) الإقرار بأن الله تعالى هو خالق الخلق جميعاً.

(2) فرش الأرض وتمهيدها.

(3) بناء السماء وإحكامها وحبكها.

(4) إنزال الماء من السماء.

(5) إخراج الثمرات بواسطة الماء.

وختام ذلك يأتي النهي عن الشرك بالله تعالى، نهياً قاطعاً جازماً. وقبل الدخول إلى شرح كل واحدة من هذه القضايا أرى لزاماً عليّ استعراض أقوال عدد من كبار المفسرين القدامى والمعاصرين في شرح هاتين ال